الجنس ونشوؤه في اللغات السامية

د. محمد حسن ابراهيم
قسم اللغة الانجليزية وآدابها

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مقدمة

الجنس اللغوي أو النحوي(Grammatical gender)ظاهرة معروفة في بعض اللغات دون الأخرى ، فهو معروف في اللغات الهندو ــ أوروبية واللغات السامية ، ولكنه ليس معروفاً في اللغة الصينية مثلا . وقد استحوذت هذه الظاهرة على اهتمام الدارسين والفلاسفة منذ أقدم العصور ، حيث نجد في الآثار الفلسفية والأدبية التي وصلتنا من اليونان القدماء إشارات متفرقة الى هذا الموضوع ، بعضها جاد ، وبعضها ساخر(١) .

وقد استمر هذا الاهتمام بالجنس على مر القرون حتى يومنا هذا . وبتطور علم اللغة التاريخي منذ القرن التاسع عشر أصبح بالامكان معالجة موضوع الجنس بعلمية ودقة أكثر. وقد حظيت اللغات الهندو ــ أوروبية في هذا المجال بنصيب أوفر من الاهتمام نظراً لاهتمام عدد كبير من الدارسين الأوروبيين بها ونظراً لتطور علم اللغة وتقدمه بجميع فروعه في أوروبا قبل غيرها .

لعل أهم النتائج التي توصل اليها الباحثون في قضية الجنس اللغوي هو ان هذا الجنس طارىء في جميع اللغات التي يوجد فيها اليوم ، أي انه نشأ متأخراً نسبياً ، وانه ليس قديماً قدم تلك اللغات . وقد توصل الباحثون الى هذه النتيجة بصورة مستقلة عن بعضهم البعض، إذ قام أحد الباحثين الاميركيين بتتبع تاريخ الجنس ومنشئه في اللغات الهندو - أوروبية ، وبين كيف ان ما أصبح في تلك اللغات علامات تدل على المؤنث أو المذكر أو الجماد (Neuter) كان في الأصل علامات تستعمل لأغراض أخرى لا علاقة لها على الاطلاق بالجنس ، وان ربط هذه العلامات بالجنس جاء عرضاً (٢) . كما ان مستشرقاً امريكياً قام بنفس العمل بالنسبة للغات السامية (٣) ، وسنتعرض لتفصيل ذلك في الصفحات التالية ، وقد توفر على دراسة هذه القضية في اللغات السامية عدد من المستشرقين ، سنتعرض لآراء بعضهم ، ولكن بعد أن نلقي أولا نظرة سريعة على جهود النحويين العرب في هذا المضمار.

النحويون العرب والجنس في اللغة

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

اهتم النحويون العرب بالجنس في اللغة العربية وأطلقوا على هذه القضية اصطلاح التذكير والتأنيث أو المذكر والمؤنث ، فعالجوا الأمر من شتى نواحيه ، ولكن دراستهم كانت في الغالب وصفية (Descriptive) ، ولم يتطرقوا الى الناحية التاريخية لهذه المسألة أو الى مقارنة الجنس في العربية به في غيرها من اللغات . ولا نسوق هذا الكلام كمأخذ على النحاة العرب الذين لم يتوفر لهم من المعرفة بمجموعات اللغات وفصائلها المختلفة القدر الكافي لتمكينهم من القيام بمثل هذه الدراسة والمقارنة ، ولا كانت الدراسة اللغوية التاريخية قد تطورت في زمنهم كما هو عليه الحال الآن ، فجاءت دراستهم ونتائجهم التي توصلوا اليها نتيجة حتمية للمرحلة التاريخية والثقافية التي عاصرها نحاتنا .

وكان مما تعرض له النحاة في قضية التذكير والتأنيث هو البحث في التأنيث وعلاماته، ووضع القواعد التي تنص على وجوب تأنيث الفعل أو جوازه اذا كان فاعله مؤنثاً ، ثم البحث في المؤنثات السماعية . ولكنهم، كما أسلفنا القول، لم يتعرضوا للناحية التاريخية ، لا في هذا الموضوع ولا في غيره من مواضيع النحو العربي . غير انهم قالوا بأن التأنيث فرع التذكير ، ولذلك احتاج الى علامة تدل عليه . ويستطيع المرء أن يؤول هذا القول على انه اشارة الى نشأة الجنس في العربية . وفي مكان آخر من هذا البحث سنبين أهمية هذا القول ومغزاه .

المستشرقون والجنس في اللغات السامية

يعود الفضل في الاهتمام بالجانب التاريخي للجنس في اللغات السامية الى المستشرقين في الدرجة الاولى ، وربما كان مبعث اهتمامهم بهذا الموضوع هو ما توصل اليه علماء اللغة وفقهاؤها في الغرب من النتائج في دراستهم للغات الهندو – أوروبية ، ويؤيد هذا القول ما نلاحظه من تشابه في النظريات الخاصة بنشوء الجنس وتطوره التي قال بها علماء اللغة في الغرب بالنسبة للغاتهم ، والنظريات الخاصة بهذا الموضوع في اللغات السامية التي قال بها المستشرقون .

كانت النظريات الاولى حول منشأ الجنس في اللغة تقوم على الحدس والتخمين ، ولا تستند في الغالب الى معلومات تاريخية ثابتة ، أو حقائق علمية أكيدة . وهذا القول ينطبق على نظريات الباحثين في اللغات الاوروبية والسامية سواء بسواء ، وما دام موضوع بحثنا هو اللغات السامية فسنقتصر على بعض الأمثلة مما قال به المستشرقون بخصوص هذه اللغات دون التعرض لذكر النظريات والآراء الخاصة باللغات الاوروبية .

يقول «رايت» ، وهو مؤلف أشهر نحو عربي في الغرب ، محاولا تفسير وجود جنسين فقط (المذكر والمؤنث) في اللغات السامية : ان الخيال الحي للساميين كان يرى ان جميع الأشياء ، حتى تلك التي يبدو واضحاً أن لا حياة فيها ، مفعمة بالحياة والشخصية ، وعليه فهناك جنسان فقط ، حيث ان في الطبيعة جنسين أيضاً(٤) .

ولدى كلامه عن بعض الأسماء المؤنثة في اللغة العبرية، يزعم مستشرق آخر ان الأسماء المؤنثة التي لا تلحق بها علامة التأنيث ، مثل يد وعين ، كان العقل السامي القديم ينظر اليها على انها في الحقيقة مخلوقات مؤنثة(٥) . أما المستشرق الالماني (ألبرشت Albrecht) فيقول حول نفس الموضوع بأن الساميين يدرجون في عداد المذكر كل ما هو خطر ومتوحش ، أو شجاع ومرهوب ، أو عظيم وقوي . أما المؤنث فيشتمل على كل ما هو رؤوم حنون ، أو يمدنا بالغذاء وأسباب الحياة ، أو ما يتصف بالرقة والضعف(٦) .

ولعل من أطرف نظريات المستشرقين المتعلقة بنشأة الجنس في اللغات السامية هو ما قال به الالماني «بروكلمان» من ان وجود التأنيث في السامية القديمة دون وجود علامة خاصة بالمؤنث آنذاك ، يدل على أن الاناث كان لهن مكانة أرفع ومقاماً أعلى من الذكور في المجتمع

السامي البدائي . وعليه فيمكن للمرء أن يستنتج ان ذلك المجتمع ربما كان مجتمعاً أمومياً (Matriarchal) ، أي مجتمعاً يرجع فيه الى الأم في النسب والوراثة(٧) .

هذه أمثلة فقط لما توصل اليه حدس المستشرقين حول أصل الجنس في اللغات السامية ، وكما أسلفنا القول ، كانت النتائج التي توصلوا اليها تستند الى ما توصل اليه غيرهم في دراستهم للغات الاوروبية . على ان نظريات الفريقين ، علماء اللغة الغربيين والمستشرقين ، لم تظهر اعتباطاً أو بدون مقدمات ، بل ان هؤلاء وأولئك وجدوا في المناخ الثقافي السائد آنذاك (القرن التاسع عشر وأوائل العشرين) خير سند لهم ، فقد كان علماء الأجناس في ذلك الوقت مشغولين ببناء النظريات حول أصل الانسان والحضارات والشعوب التي أسموها بدائية ، وتوسعوا في الحديث عن عقلية هذه الشعوب البدائية التي زعموا انها عاجزة عن ادراك المجردات ، وانه لا بد لها من أن تنسب الحياة الى كل ما هو موجود في الطبيعة من أحياء وجمادات على حد سواء(٨) .

ننتقل الآن الى الحديث عن نوع مختلف من النظريات الخاصة بالجنس في اللغة ، نوع يتسم بالطابع الموضوعي العلمي ، لأنه يحاول قدر الامكان أن يدعم النتائج بأمثلة من اللغات السامية . وكما قلنا ، لم يكن ظهور مثل هذه النظريات ممكنا قبل تطور علم اللغة التاريخي ونضوجه . ونبدأ باستعراض آراء المستشرق الالماني الكبير كارل بروكلمان(٩) .

كان بروكلمان من السابقين الى القول بأن ليس للجنس في اللغات السامية علاقة من حيث أصله ومنشئه بالجنس في الطبيعة (Natural gender) ، أي من حيث وجود مخلوقات أناث وأخرى ذكور في الطبيعة ، ويسوق دليلين رئيسيين للبرهنة على قوله هذا :

(أ) ان اللغات السامية لا تستخدم علامة التأنيث للتمييز بين المذكر والمؤنث في الحالات التي يكون فيها هذا التمييز ضروريا واساسيا، وبدلا من ذلك تلجأ هذه اللغات الى استعمال اسمين مختلفين للدلالة على المذكر والمؤنث كما في الالفاظ العربية : حصان — فرس ، اب — ام ، جمل — ناقة ، كذلك فان هناك بعض الصفات المؤنثة التي تخلو من اية علامة للتأنيث كما في حامل وحائض وعاقر وغيرها .

(ب) في جميع اللغات السامية يعثر الباحث على اسماء يجب تأنيثها لغويا في جميع هذه اللغات ولكن هذه الاسماء تخلو من علامات التأنيث ، كما في ارض ونفس ونار ويد وغيرها وفي المقابل هناك اسماء تنتهي بعلامة التأنيث، ولكنها تدل على ذكور كما في طاغية وخليفة

من هاتين الحقيقتين يستنتج بروكلمان ان التأنيث في اللغات السامية هو امر طارىء وليس اصلا، ويلاحظ هنا ان بروكلمان لم يأت بجديد في هذا المجال، فنفس الامثلة التي يستشهد بها استشهد بها النحاة العرب وتوصلوا منها الى نفس النتيجة التي توصل اليها بروكلمان تقريبا حين قالوا بان التأنيث فرع التذكير ولذلك احتاج الى علامة، اي ان الاصل في جميع الاسماء عند النحاة العرب هو التذكير، وان التانيث نشأ وتفرع عنه. ويمكن تأويل قول النحاة هذا بصورة اخرى كأن نقول: الاصل في الاسماء (واللغة عامة) هو عدم وجود الجنس اللغوي فيها، ولكن ظهر الجنس وتطور فيما بعد في العربية، وكان ان اختصت الاسماء المؤنثة بعلامة (او علامات) تميزها عن الاسماء المذكرة.

بعد هذا يصرح بروكلمان برأي حول اصل الجنس في اللغات السامية، فيقول بانه من الممكن اعتبار التذكير والتأنيث نوعا من تقسيم الاسماء الى اصناف (classes) كما هو معروف في بعض اللغات الافريقية التي قد يصل عدد اصناف الاسماء في بعضها الى عشرين صنفا، وعليه فلربما كان المذكر والمؤنث الذي وصلنا في اللغات السامية هو كل ما تبقى من آثار ذلك التصنيف. ويستدل بروكلمان على ذلك بوجود اكثر من علامة للتأنيث ويحتمل ان تكون هذه العلامات التي تؤدي نفس الوظيفة اليوم كانت تؤدي وظائف مختلفة في الاصل اي انه ربما كانت كل علامة من هذه العلامات تدل في الاصل على صنف معين من الاسماء

ونعثر في المؤلفات التي نشرت مؤخرا على صدى لرأي بروكلمان هذا، بل انه اقرب ما يكون الى ترديد لهذا الرأي بحذافيره، في كتابات مستشرق ايطالي وآخر فرنسي. فالايطالي يقول: لعل الجنس في اللغات السامية يعود في الاصل الى نظام قديم ومعقد لتصنيف الاسماء (١٠) كما يردد المستشرق الفرنسي نفس القول تقريبا. (١١)

واخيرا، فان بروكلمان من القائلين بان علامات التأنيث في اللغات السامية كانت في القديم تستعمل كلواحق للاسماء الدالة على الجماعة (collective) والمعاني المجردة (absract) وقد انتشر هذا الرأي ايضا انتشارا واسعا بين المستشرقين وفي مؤلفاتهم اللغوية والنحوية في اللغات السامية. ومع ان بروكلمان لا يسوق دليلا على اعتقاده هذا، الا ان بوسع المرء ان يخمن ان السبب الذي دفعه الى هذا القول هو كون الكثير من الاسماء الدالة على المعاني المجردة تنتهي بتاء التأنيث، كما في امانة وشجاعة وعظمة، وكون اسماء الجماعة تعامل معاملة المؤنث المفرد، علاوة على ان بعض هذه الاسماء تلحقه تاء التأنيث كما في جماعة وطلبة وكشافة ورعية.

في عام ١٩٢١ ظهر في فرنسا كتاب هام لعلم من اعلام علم اللغة في اوروبا آنذاك هو انطوان مييه (Meillet) الذي بحث بعض فصولـــه في الجنس في اللغات الهندو — اوروبية ، وتوصل الى نتائج اعتبرت في حينها مهمة . وكان من النتائج الرئيسية التي توصل اليها مييه ان الاسماء في اللغات الهندو—اوروبية انقسمت اولا الى قسمين الاسماء الدالة على كائنات حية ، والاسماء الدالة على غير ذلك ، اي على النباتات والجماد . ثم تلت هذه المرحلة مرحلة اخرى انقسمت فيها الاسماء الدالة على كائنات حية الى مذكر ومؤنث ، ومن هنا كان اصل الاجناس اللغوية في اللغات الهندو — اوروبية . (١٢)

بعد ظهور هذا الكتاب بثلاث سنوات قام فرنسيان من المتخصصين في اللغات السامية فقالا ، كما قال مييه ، بان الاسمـــاء السامية انقسمت اولا الى مجموعتين : المجموعة الأولى تتكون من الاسماء الدالة على كائنات حية ، والثانية من الاسماء التي تدل على كائنات غير حية . ثم انقسمت المجموعة الاولى الى قسمين : مذكـــر ومؤنث . ثم كانت هناك مرحلة ثالثة ، بالنسبة لتطور الجنس في اللغات السامية لم يحدث ما يقابلها في اللغات الهندو—اوروبية هذه المرحلة هي ان مجموعتي الاسماء الدالة على الذكور والاناث اقتسمت فيما بينها الاسماء الدالة على كائنات غير حية واستوعبتها ، وبذلك اصبح لدينا نوعان من الاسماء فقط : مذكر ومؤنث وقد حدثت جميع هذه التطورات قبل ان تتفرع اللغة السامية الاصلية (الام) الى لغات مختلفـــة . (١٣) وهذا الافتراض ، اي حدوث جميع هذه التطورات الخاصة بنشوء الجنس اللغوي في اللغة السامية الأم ، ضروري كي نستطيع تفسير اتفاق جميع اللغات السامية اتفاقا يكاد يكون تاما فيما يتعلق بالجنس اللغوي

ويضيف فغالي وكوني الى كل ما سبق قولهما بان التاء المربوطة لم يكن لها في الاصل اية علاقة على الاطلاق للدلالة على المؤنثات ، وانمـــا كانت عنصراً يستعمل لمقابلـــة الصيغ بعضها ببعض كما في قولنا خمسة رجال وخمس نساء . (١٤)

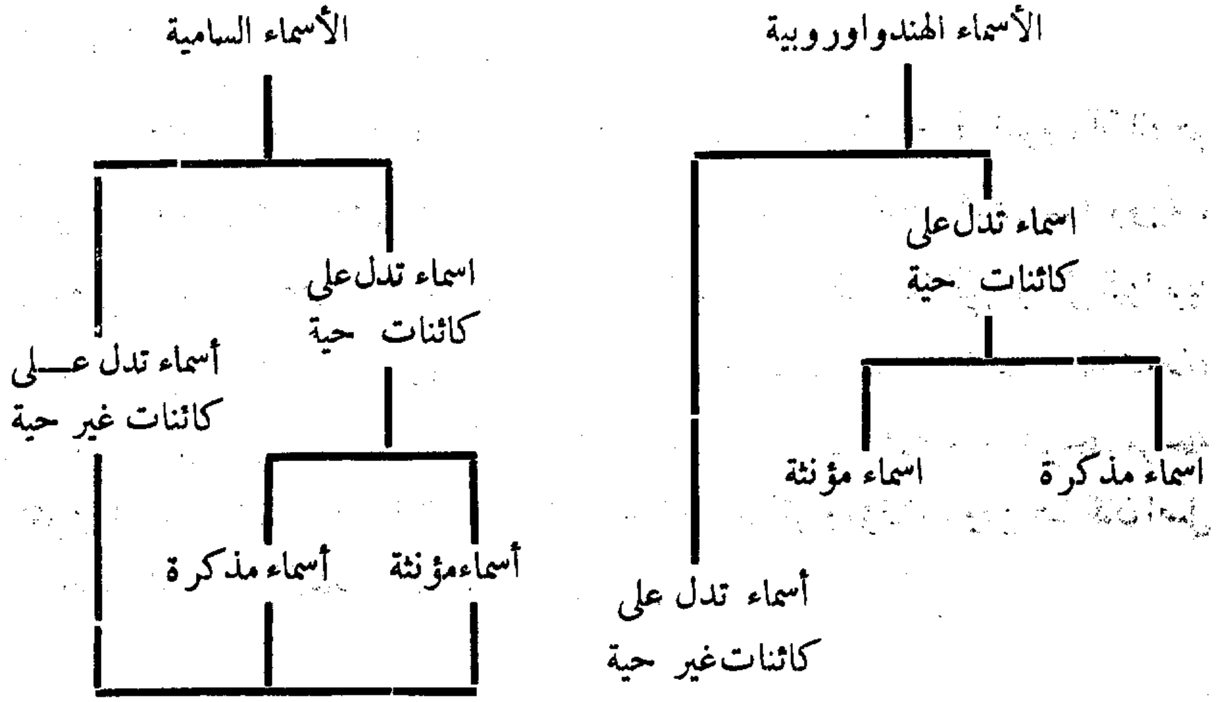
الأسماء الهندواوروبية
اسماء تدل على كائنات حية
اسماء مذكرة
اسماء مؤنثة
أسماء تدل على كائنات غير حية
الأسماء السامية
اسماء تدل على كائنات حية
أسماءمؤنثة
أسماء مذكرة
أسماء تدل على كائنات غير حية

رسم تخطيطي يبين نشوء الجنس اللغوي في اللغات الهندو–اوروبية حسب نظرية مييه ونشوئه في اللغات السامية طبقا لرأي فغالي وكوني .

المستشرق الامريكي سبايزر(١٥)

نقطة الانطلاق عند سبايزر في بحثه عن اصل الجنس ونشأته في اللغات السامية هو اسماء الأستفهام ، وهو يلحظ في هذا المجال ما لحظه فغالي وكوني ، بان اول ما ميزته اللغات السامية كان الكائنات الحية وغير الحية . ونحن نجد هذا التمييز باقيا اثره في اسماء الاستفهام في اللغات السامية الى اليوم (قارن استعمال من؟ للعاقل وما ؟ لغير العاقل في العربية) ، ولم يكن هناك اي تمييز في هذه الاسماء بين الصيغ المستعملة في المذكر وتلك المستعملة في المؤنث ثم ينتقل بعد ذلك الى البحث عن اصل التاء المربوطة التي اصبحت فيما بعد اهم علامات التأنيث وكيف اكتسبت هذه الوظيفة، وفي استقصائه لهذه المسألة يستبعد مصدرين محتملين لتاء التأنيث :

أ) يستبعد سبايزر ان يكون مصدر هذه التاء هو الضمائر ، وذلك لاننا لا نعثر على اي اثر لهذه التاء في الضمائر السامية ، فلو انها كانت تستعمل قديما للتمييز بين المذكر والمؤنث لبقي منها اثر على الاقل . والواقع ان الضمائر التي تميز بين المذكر والمؤنث في اللغات السامية تستخدم كسرة طويلة لهذا الغرض ، ولا تستخدم تاء التأنيث (قارن هو وهي في العربية) .

ب) كذلك يستبعد سبايزر ان تكون هذه التاء قد انحدرت من تاء مماثلة كانت تستعمل في بعض الاسماء الدالة على اناث ، وذلك لسبب بسيط وهو ان اللغات السامية حين كانت تريد التمييز بين الذكر والانثى كانت تلجأ الى استعمال اسمين مختلفين للدلالة على ذلك (حصان — فرس ، رجل — امرأة ، الخ) .

وعليه فلا بد من الاستنتاج بان التاء المربوطة لم تكتسب وظيفتها الحالية ، وهي الدلالة على الاسماء المؤنثة لغويا ، الا في مرحلة متأخرة نسبيا من مراحل تطور اللغات السامية ، ودليله على ذلك — علاوة على ما تقدم — هو ان التاء المربوطة في جميع اللغات السامية تقوم بعدة وظائف علاوة على وظيفتها كعلامة للتأنيث. ومن هذه الوظائف :

١) صياغة الاسماء المجردة (Abstract) من الصفات والاعداد والافعال ، كما في الامثلة العربية : حسن — حسنة ، خمس — خماسية ، فعل — فعلة ، الخ .

٢) بناء اسماء الجماعة (Collectives) من اسماء الفاعل، كما في : كافر — كفرة ، قاتل — قتلة .

٣) صياغة اسماء المفرد من اسماء الجماعة ، وهذه الوظيفة تتعارض كليا مع الوظيفة السابقة ، اي انها عكسها تماما ، كما في : بقر — بقرة ، شعر — شعرة .

٤) اخيرا ، نجد تاء التأنيث تلحق ببعض الاسماء المصغرة كما في : عين — عيينة ، واذن — أُذينة .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

من هذا نرى التقلب الفائق في وظائف التاء المربوطة ، فمن جملة وظائفها صياغة اسماء الجماعة ، ثم القيام بوظيفة عكس هذه تماما ، وهي صياغة اسماء المفرد من اسماء الجماعة . هذ التناقض وعدم الاطراد في وظائف التاء المربوطة دفع بسبايزر الى استنتاج حقيقة هامة حول الوظيفة الاساسية لهذه التاء، وهذه الوظيفة الاساسية لم تكن صياغة اسماء الجماعة او الوحدة ولا اي من الوظائف التي ذكرناها ، وانما كانت الوظيفة الرئيسية للتاء وظيفة اشتقاقية ، تلحق ببعض الصيغ ، فتغيرها وتغير من معناها الى حد ما . وعن طريق هذه الوظيفة برزت التاء المربوطة في اللغات السامية ، واصبحت لها مكانة لغوية هامة من خلال هذه الوظيفة الاشتقاقية اولا وقبل كل شيء ، وكانت الاهمية التي اكتسبتها التاء بفضل هذه الوظيفة عاملا رئيسيا في تيسير السبل امامها والتوسع في استعمالها في مجال آخر هام فيما بعد ، وهو استعمالها للدلالة على الاسماء المؤنثة .

غير ان سبايزر لا يقول لنا لماذا برزت التاء المربوطة دون غيرها في هذا المجال، مجال الاشتقاق . ولعل الجواب على هذا التساؤل ليس بالعسير اذا تذكرنا ان اللغات السامية ، بخلاف اللغات الهندو – اوروبية ، لا تعتمد في الاشتقاق على استعمال اللواحق (Suffixes) والكواسع (Prefixes) ، وانما على ابنية وصيغ تقوم على اجراء تغييرات في البنية الداخلية للمفردات . ولكن يبدو ان هذه الوسيلة لم تكن لتفي بكل احتياجات اللغة من المفردات الجديدة ، وحيث ان التاء المربوطة من اللواحق النادرة في اللغات السامية ، فقد استخدمت هذه التاء كلاحقة اشتقاقية .

اما كيف اكتسبت التاء المربوطة وظيفتها الجديدة ، وهي الدلالة على الاسماء المؤنثة ، فليس واضحا بدرجة كافية ، ويرى سبايرز ان وقوع التـاء في كثير مـن الاسماء التي تدل على مخلوقات اناث ادى الى ربط هذه التاء في اذهان اهـل اللغة بالمؤنث . بعد هذا نستطيع ان نتخيل السهولة التي اصبح المتكلم يقرن بها كل اسم ينتهي بتاء مربوطة ، سواء كان هذا الاسم يدل على كائن حي او جماد ، بفكرة التأنيث ، ثم امتدت هذه التاء الى الصفات والافعال ، اذ يرى سبايرز ان التاء في فعل مثل هاكت هي ،من الناحية التاريخية، نفس التاء التي في الاسماء المؤنثة .

والسؤال الذي لم نتعرض له الى الآن هو : ما اصل تاء التأنيث هـذه ومصدرها ؟ وبعبارة اخرى ، من اين جاءت هذه التاء ؟

على هذا السؤال يجيب سبايرزت باختصار قائلا : ان المصدر الاكثر احتمالا من غيره لتاء التأنيث السامية هو التاء التي نجدها مستعملة في الضمائر المنفصلة في اللغة الاكادية حين تقع هذه الضمائر في منزلة المفعول به في الجملة كما في(Ya - t - i) التي تقابل في الاكادية الياء في (ضربني)و K a - t - i) التي تقابل الكاف في (ضربك) . وان لم يكن قد بقي اثر لهذه التاءفي غير الاكادية من اللغات السامية،فانها، كما يقول سبايرز ، لا تزال موجودة في اللغات الحامية ، وعلى الاخص لغات الاجاو(Agau) . والمعروف أن معظم مؤرخي اللغات يشملون اللغات السامية والحامية في فصيلة واحدة يطلقون عليها فصيلة اللغات السامية – الحامية . وهذا يعني ان وجود هذه التاء في اللغات الحامية يشير الى ان اللغات السامية كانت تستعملها لنفس الغرض في وقت ما .

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام الاشارة الى ان ليمان (Lehmann) توصل مؤخرا الى نتيجة مماثلة بالنسبة لمصدر علامات الجنس في اللغات الهندو — اوروبية ، اذا انه استنتج بعد دراسته لنشوء الجنس اللغوي وتطوره في تلك اللغات ان ما اصبح علامات تدل على الاجناس المختلفة كان في الاصل علامات تستعمل للدلالة على بعض حالات الاسم ، كحالة الرفع والنصب . (١٦)

علامات التأنيث الاخرى

علاوة على اتفاق اللغات السامية في إستخدامها للتاء المربوطة كعلامة رئيسية للتأنيث ، فان هذه اللغات تتفق ايضا في استخدامها لعلامات أقل اهمية وشيوعا من التاء لنفس الغرض ؛ فالعربية تستخدم علاوة على التاء ما يسمى بالالف الممدودة والالف المقصورة في بعض الاسماء المؤنثة ، ونجد مثل ذلك في اللغات السامية الاخرى .

وقد تناول الباحثون هذه العلامات الثانوية للتأنيث بالدرس ايضا ، ولكن نتائجهم كانت اقل حسما منها في بحثهم في التاء . ولا يزال الغموض التام يحيط بالاصل الذي انحدرت منه هاتين الالفين . ويلاحظ فغالي وكوني ان الالف الممدودة والمقصورة كانتا في الاصل كالتاء تستخدمان في بعض صيغ الجموع كما في شعراء ، فقراء ، عذارى ، وقتلى . كما انهما يلاحظان ان هاتين الالفين قديمتان قدم التاء من حيث دلالتها على المؤنث ، وذلك لاننا نجد في جميع اللغات السامية اسماء مؤنثة وعلامة تأنيثها احد الالفين كما في سلوى (طائر) التي نجدها في العربية والعبرية والسريانية ، وعنكباء في العربية والسريانية .

ومن الطريف ان علامات التأنيث الثلاث — التاء والالفين — قد اندمجت في اللهجات العربية وبعض اللغات السامية في علامة واحدة تشبه حركة الفتحة ، بحيث اصبحنا نلفظ اواخر الكلمات التالية في كلامنا اليومي بنفس الطريقة : حبلى ، عرجاء ، دولة ، فالعلامات الثلاث المختلفة اصلا في هذه الكلمات لها نفس اللفظ وهو (a) قصيرة ويبدو ان هذه الظاهرة قديمة في اللغات السامية ، لاننا نعثر في هذه اللغات احيانا على ثلاث صيغ لكلمة واحدة ، كل صيغة منها تنتهي باحدى العلامات الثلاث دون ان يؤثر ذلك في المعنى ، كما في العربية : بلواء — بلوى — بلوة ، ورغباء — رغبى — رغبة .

خاتمة

١) لعل اهم حقيقة تستفاد من هذا العرض التاريخي لتطور الجنس اللغوي في اللغات السامية هي ان هذا الجنس طارىء في اللغة ، وان نشوءه كان امرا عارضا ومحض صدفة تاريخية . ولكي ندرك اهمية هذه النتيجة نعيد الى الذاكرة اهتمام الانسان منذ القدم

بقضية اصل اللغة ، وكيف توصل الانسان الى ابتداعها وسيلة للتفاهم بحيث اصبح يصعب علينا ان نتصور الحياة بدونها . لقد ظلت جهود المهتمين بهذه القضية تدور في حلقة مفرغة نظرا لانه لم يصلنا اي اثر مكتوب او غيره يعيننا في التوصل الى جواب شاف لهذه المسألة مسألة نشوء اللغة عند الانسان القديم .

وقد ادرك علماء اللغة المحدثون عقم هذه المحاولات وايقنوا ان الفشل هو مصير أية محاولة تسعى الى حل هذه المعضلة بصورة مباشرة فلجأوا الى اسلوب غير مباشر عله يقربهم من الهدف المنشود على الاقل ، ان لم يوصلهم اليه بالفعل . ويتمثل هذا الاسلوب غير المباشر في دراسة اللغة كأجزاء متفرقة ، وليس ككل واحد . فمثلا يدرسون قضية الجنس في لغات البشر جميعها ويتوصلون من ذلك الى نتائج تعطيهم جزءا ولو بسيطا من الصورة التي كانت عليها اللغة الانسانية القديمة . فحين نعلم مثلا ان الجنس شيء طارىء في اللغة نستنتج من ذلك ان اللغة الاولى لبني الانسان كانت تخلو من هذه الظاهرة اللغوية . وباتباع نفس الطريقة يدرسون مثلا مسألة العدد ، او الزمن في الأفعال ،الى غير ذلك . وبتجميع هذه الأجزاء في النهاية يأملون في التوصل الى صورة كلية او شبه كليه لما كانت عليه اللغة الاولى .

ان الدراسة اللغوية ليست غاية في حد ذاتها ، فعلاوة على ما يمكن ان تسهم به في حل مشاكل حياتنا اللغوية والتعليمية ، يرى بعض علماء اللغة والنفس ان فهمنا للغة سيكون المفتاح الرئيسي لفهمنا ومعرفتنا الشيء الكثير عن العقل الانساني . واذا ما عرفنا شيئا عن اللغة في اقدم ازمنتها وقارنا ذلك بما آلت اليه اليوم ، فان ذلك سيشكل زادا كبيرا من المعرفة عن تطور العقل البشري، وهذا النوع من المعرفة لا يمكن الحصول عليه بوسيلة أخرى

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

٢) والنتيجة الهامة الاخرى التي عرضنا لها في هذا البحث هي الوظيفة الاشتقاقية لتاء التأنيث ، وهذه الوظيفة من الناحية التاريخية سابقة للوظيفة النحوية للتاء ، وظيفة الدلالة على الاسم المؤنث . ان المتأمل في العربية الفصحى اليوم يجد ان الوظيفة الاشتقاقية للتاء ما زالت حية ومهمة ، فالتاء امدتنا في العصر الحديث بمئات الاسماء والمصطلحات الجديدة ، ولا حاجة للقول بان التاء لم تلحق بهذه الاسماء لتدل على وجوب تأنيث هذه الاسماء ، لان جميع هذه الاسماء تدل على اسماء مجردة ، وانما كان وجود التاء في هذه الاسماء هو امتداد لوظيفة التاء الاشتقاقية القديمة التي بين لنا سبايزر اهميتها ، وكمثال لما نقول نذكر كلمات قليلة مما تلحق به التاء كلاحقة اشتقاقية للتدليل على استمرار الوظيفة الاشتقاقية للتاء واهميتها في العربية المعاصرة : اتفاقية ، ارسالية ، انانية ، مديونية ، اقلية ، حيثية ، كيفية ، وغيرها كثير واني لارجو ان اعالج هذه الناحية في بحث مستقل .

الحواشي

١ ـ انظر في هذا المجال :

R. H. Robins, *Ancient and Mediaeval Grammatical Theory in Europe* (London, 1951); R.H. Robins, *A Short History of Linguistics* (London, 1967); J. Lyons, *Introduction to Theoretical Linguistics* (Cambridge University Press, 1968).

2 — W. P. Lehmann, "On Earlier Stages of the Indo-European Nominal Inflection," *Language* 34.2 (1958), PP. 179-202.

3 — E.A. Speiser, "Studies in Semitic Formatives," *Journal of the American Oriental Society* 56.1 (1936), PP. 22-46.

4 — W. Wright, *A Grammar of the Arabic Language*, 3rd ed. (Cambridge University Press 1896), Vol. 1, P. 131.

5 — E. Kautzsch, *Gesenius' Hebrew Grammar*, translated by A. E. Cowley, 2nd ed. (Oxford University Press, 1910), P. 393, footnote 2.

٦ ـ نقلا عن المصدر السابق ص ٣٩١، حاشية ٣.

7 — C. Brockelmann, *Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen* (Berlin, 1908), vol. 1, P. 417.

٨ ـ لمن شاء الاستزادة حول هذا الموضوع ان يراجع الفصل الاول من كتاب

G. Lienhardt, *Social Anthropology* (Oxford University Press, 1966), PP. 1-32.

٩ ـ الفقرات التالية خلاصة لآراء بروكلمان عن الجنس في اللغات السامية كما وردت في كتابيه

Précis de linguistique sémitique, translated by W. Marcais and M. Cohen (Paris, 1910), p. 126 ff., and *Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen*, vol. 1, P. 404 ff.

10 — S. Moscati, *An Introduction to the Comparative Grammar of the Semitic Languages* (Wiesbaden, 1964) pp. 84-85.

١١ـ الاب هنري فليش اليسوعي، العربية الفصحى: نحو بناء لغوى جديد تعريب وتحقيق د. عبد الصبور شاهين (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦٦) ، ص ٦٩ ـ ٧١ .

12 — A. Meillet, *Linguistique Historique et Linguistique Général* (Paris, 1921),

13 — M. Feghali & A. Cuny, *Du Genre Grammatical en Sémitique* (Paris, 1924), PP. 8-9, 81-82.

١٤ـ المصدر السابق، ص ١٧.

١٥ـ انظر الحاشية رقم (٣) اعلاه .

١٦ ـ انظر الحاشية رقم (٢) اعلاه .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی